مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد12 / العـدد: 02(2024)، ص:1020-1037

رؤى العالم وتصويرها في روايات مالك حداد-دراسة تطبيقية-

Visions of the world and their portrayal in Malek Haddad's novels - an applied study-

بن علوش حورية[1]، موات نادية[2]

[1] مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة

(الجزائر)، benallouchehouria.1216@gmail.com

[2] مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)،

mouats.nadia@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2024/03/31 تاريخ القبول: 2024/05/14 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تكشف بتوجه تطبيقي عن الرؤى التي حملتها النصوص الروائية لدى الكاتب الجزائري الفرنكفوني مالك حداد، وأمام هذه النصوص التي وضعتنا في توجهات عديدة تصب جلّها تقريب في موضوع اسمه الجزائر، ومحور أساسي هو الانتماء، الوطن، والحرية وسوف نترصد هذه الموضوعات التي تطرأ لها الكاتب عبر الروايات الثلاثة التي رغم اختلاف عنوانها الا انك تلاحظ انها مترابطة ومتقاطعة في الكثير من الروئ التي جسدت واقع الجزائر بطريقه يغلب عليها الخيال والإبداع والتصوير الفني لصورة الجزائر في كل التفاصيل، لنتوصل إلى ان الكاتب فعل استطاع ان يربط الواقع بالخيال والجمال بالكلمة ليوصل صرخة شعبه بلغة مستعمره الى العالم فكانت اللغة وسيلة حرب.

كلمات مفتاحية: الرؤى، الانتماء، اللغة، المقاومة، النصوص الروائية.

Abstract:

This study attempts to reveal, with an applied approach, the visions conveyed by the novelistic texts of the Francophone

Algerian writer Malek Haddad, and in front of these texts that put us in many directions, most of which focus on a topic called Algeria, and a basic axis of belonging, homeland, and freedom. We will monitor these topics that occurred to the writer through the three novels, which despite their different titles, you will notice that they are interconnected and intersecting in many of the visions that embodied the reality of Algeria in a way that is dominated by imagination, creativity, and artistic depiction of the image of Algeria in all the details, so that we can conclude that the writer was an act that was able to connect Reality with imagination and beauty with words, to convey the cry of his people in a colonized language to the world. Language was a means of war.

Keywords: Visions, belonging, language, the resistor, Narrative texts.

***المؤلف المرسل:** بن علوش حورية

1. مقدمة:

تعّد الرّواية الجنس الأدبي الأكثر انتشاراً في العصر الحديث والمعاصر، والتي تعبّر عن القضايا والرؤى المختلفة، وأصبحت الأكثر تمكنا، وذلك للتغيرات التي طرأت على تقنيات الكتابة الجديدة، والتي أُحدثت على الرواية ومدى انعكاس الواقع ومتغيراته في هذا الإبداع، إذ استحضرت التّاريخ ومختلف المظاهر الاجتماعية والثّقافية والسّياسية والدّينية التي تميز كل مجتمع من المجتمعات الإنسانيّة في بيئة زمكانيّة معيّنة، تجمع فيها الرواية بين الواقع والمتخيل الفنّيّ، و أصبحت هي الجنس الأدبيّ الذي يمتصّ ألم الذّات ويطرح الأفكار ويحلّل الواقع المعقّد بكلّ أبعاده، في صور جميلة تأخذ القارئ إلى أبعاد اجتماعية وسياسية ودينية في قالب فني، وبما أنّ

الأمر متعلّق بتناول القضايا الفكريّة، فإنّ الرّواية هي الأقدر على احتضان مختلف الرّؤى.

وقد استوعبت الرّواية الجزائريّة سواء المكتوبة باللّغة الفرنسيّة موضوع دراستنا - أو المكتوبة باللغة العربية- قضايا المجتمع الجزائريّ في فترة الاستعمار ومعاناته التي خرجت من حدود الخريطة لتعلن للعالم عن شعب يريد الحياة، كما رسمت لنا جميع الأُطر التي احتوت تلك الرؤى الدينية والاجتماعية والإيديولوجية، ولقد كانت روايات مالك حداد من أهم الروايات التي حملت على عاتقها كتابة ذلك الواقع، فماهي اهم الروي التي تناولها مالك حداد في رواياته الثلاث؟، والى أي مدى كانت هذه الروايات تعبر عن واقع الجزائر؟

2. الرؤى الفكرية في روايات ملك حداد:

مفهوم مصطلح الرؤية:

الرؤية من أهم المصطلحات النقدية المعاصرة التي طرأت على الأدب، إذ يصبح النص الأدبي انعكاسا لوجهة نظر الكاتب أو رؤيته داخل أي خطاب، كما نجد أن الرواية كجنس أدبي استمد مادتها الأساسية من الواقع، ولكي نعرف دلالات المصطلح في الخطاب الروائي لابد من الوقوف أوّلا عند معناه اللّغوي، ثم نبحث عن مفهومه الاصطلاحي، هنا نقول: "ما المقصود بمصطلح الرؤية وما مدى تجلياتها في النص الروائي؟ "

الرؤية لغةً: جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة رأى الرؤية بالعين تتعدى إلى مفعول واحد بمعنى: العلم تتعدى إلى مفهومين، يقال رأى زيدا عالما، ورأى رؤية مثل رأه، وقال ابن سيدة: الرؤية: النظر بالعين والقلب " (ابن منظور، 2003، الصفحات 12-13)

ونجد لفظة رؤية هنا هي قدرة الإنسان على استيعاب الأشياء بواسطة العين والقلب، فأما رؤية العين فهي الإبصار، وأما الرؤيته بالقلب فهي الاعتماد على الفكر

والتدبر في إعطاء الرؤية معنى وتفسيرا، وقد جاء في المعجم الفلسفي أن الرؤية هي "ما يرُى في النوم وقد يطلق لفظ الرّؤى في الفلسفة الحديثة على وظيفة حاسة البصر" (صليبا، 1982، الصفحات 604-605) وهذا نوع من الرؤية التي تحدث في حياة الإنسان فلا هو واع بحدوثها ولا يمكنه إنكار رؤيتها في نومه، ولها دلالات معينه في واقعه، وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى "إن كنتم للرؤيا تعبرون"

اصطلاحا: تُعرَّف الرؤية على أنها "المادة الوثائقية التي يعكسها الفنان من الواقع، وتخص المجتمع والفرد معًا، ويضاف إلى ذلك موقف المبدع وطرائق تشكيله الجمالية ولتلك الرؤية" (العساف، 2005، صفحة 09)، أي أنها الصورة الانعكاسية التي تظهر في أي عمل إبداعي تبين وجهة نظر المبدع وتوّجهه.

وأما النقاد الغرب الذين درسوا فكرة الرؤية السردية ضمن الخطاب الروائي فقد كانت انطلاقتهم الأولى على أثر ما جاء به الناقد "جان بوين john bowen" في كتابه "الزمن والرؤية" حيث ذهب هذا الأخير إلى تقسيم الرؤية إلى ثلاث أقسام:

الرؤية من الخلف: وهي تُبنى على الموضوعية والمباشرة؛ ويكون فيها الراوي عليما بكل شيء، ويسير القصة بمشيئته.

الرؤية المصاحبة: وهي رؤية الشخصية المركزية التي من خلالها يمكن رؤية الشخصيات الأخرى؛ وهنا يكون الراوي مساويا للشخصية المركزية.

الرؤية من الخارج: ويكون فيها الراوي أقل معرفة من الشخصية؛ ويكتفي فقط بنقل الأحداث نقلا محايدا (يقطين، 1997، الصفحات 286-288)

أما "تزفيتان تدوروف tvetan todorov" في كتابه "الأدب والدلالة متبعا جان بويون؛ فقد صنف الرؤية السردية إلى ثلاث تصنيفات:

الراوي أكثر من الشخصية: وهنا لا يهم كيفية حصوله على المعرفة.

الراوي مساويا للشّخصية: وتكون المعرفة هنا متطابقة ومتساوية.

الراوي أقل من الشخصية: هنا المعرفة لدى الراوي تكون أقل من المعرفة لدى الشخصية (يقطين، 1997، صفحة 29)

أما "أوسبنسكي " الباحث السوفياتي فقد أعطى طرحا جديدا حيث يرى أن الرؤية هي وجهة النظر، وتتصل اتصالا وثيقا بتوليفة أول العمل الفني، وتتيح للفنان توظيف وجهة نظره وتنويعها داخل العمل على المستويات

المستوى التعبيري (phraséologique).

المستوى الإيديولوجي (idéologique).

المستوى السيكولوجي (psychologique).

المستوى المكاني والزماني (spasion -temporéle) (يقطين، 1997، الصفحات 293-294).

تختلف الكتابة الروائية عن الواقع الحقيقي لكنها تحاكيه بشيء من الخيال والإبداع، وعلى يد الكاتب تتغير بعض الحقائق لتصبح استشرافا لما هو ناتج، وهناك كتابة تحمل وجها مختلفا لا يقل أهمية عن السلاح المادي، وهذا ما فعله الكاتب مالك حداد في رواياته التي تحمل الطابع الإنساني والوطني، فأراد أن يحرر الفكر قبل الأرض، وأن يقطع حبال الخنق الثقافي والتزييف تجاه تاريخ الجزائر وتجاه الحرب من أجل الحرية الإنسانية والأدب والوطن، أن كل رواياته رسالة واضحة وبطريقة مختلفة وخاصة، فتعددت توجهات الرؤى من أيديولوجية إلى اجتماعية إلى دينية، ولقد حاولنا في هذا البحث رصد أهم الرؤى وليس جلها لما يتطلبه البحث.

الرؤى الأيديولوجي:

عكست الروايات الجزائرية في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر أزمة الهوية والانتماء بقوة، ولأن الفعل الاستعماري عمل بكل أساليب ووسائل المسخ والتشويه وإلغاء كل ما هو جزائري ثقافيا ودينيا واجتماعيا، أقام بناءات جديدة بهوية دخيلة عن طبيعة التكوين الجزائري لهدم البنية التحتية للفرد وقطع صلته بالتاريخ

والانتماء، ويفكك الفكر الجماعي، وهذا ما عكسه المؤلف مالك حداد في رواياته الثلاث "ليس لرصيف الأزهار من يجيب" و"التلميذ والدرس"، "سأهبك غزاله"، حيث كانت الانطلاقة والتأثر الأكبر من مجازر 8 ماي التي كانت منعرجا حاسما في الرؤية المستقبلية للجزائر.

3. الانتماء والهوية في الخطاب الروائي:

نجد الكاتب مالك حداد في نصوصه الروائية يوجه القارئ ويركز على تثبيت الهوية والانتماء في جميع كتاباته، وهو الانتماء الجزائري، نجد في روايته "ليس لرصيف الأزهار من يجيب " عبر شخصية خالد بن طوبال يجسّد هذه الفكرة في العديد من الأحداث التي تناولتها الرواية، وخاصة التشظي الزمني الذي تلعب عليه الذاكرة لدى خالد في كل تفاصيل حياته الباريسية، الذاكرة التي تعود بالزمن الذي يعود به إلى مدينة قسنطينة، والانتماء المكاني الذي يعيده دائما إلى الجزائر وفي هذا يقول "فالمدرسة القديمة التي تشرف على الرمال والأزقة المضطربة وساحة الغاليت وساحة سيدي حسين وضاحية لالا الجاثمة فوق الهضبة، أن هذه الأماكن التي تفتح مكانا من الذاكرة (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 18)

يؤكد خالد بن طوبال أنه ينتمي لقسنطينة، بل هو متجذر فيها رغم ما تقدمه باريس من جمال ورخاء وانضباط، إلا أن قسنطينة هي الراحة الدائمة والجزء الكامل فيه، إنها في مكان عميق في الذاكرة لا تُنْسَى، وهذا ما يؤكده بقوله: "لكن خالد كان ثمرة تربية عريقة في القدم" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 61)

أراد الكاتب أن يوضح للقارئ وللمستعمر أن الناحية التكوينية الوجودية للفرد الجزائري، لن يغيرها الأسلوب الاستعماري، ورغم التكوين اللغوي الفرنسي إلا أن تكوين الجزائري ثابت وراسخ ولا تزعزعه اللغة والتعليم، لقد كان خالد بن طوبال وطنيا مخلصا حتى في حواره الداخلي.

أما في رواية "سأهبك غزالة " فقد ربط الكاتب الهوية و الانتماء باللغة التي أصبحت المنفى الداخلي الذي قيد هويته، ولم تكن غربة المكان بقدر ما كانت غربة اللغة، وهي مسافة الابتعاد بين الكاتب والكلمة والإبداع الأدبي، لكنها كانت سلاحا وصرخة ترجمت واقع الجزائر بلغة المستعمر وفي عقر داره وبلغته الآخر، بإبداع ارتقى إلى قمة الفن التعبيري يعبر به الكاتب عن وجود الوطن في خريطة العالم، فكان ذكر الأماكن بوصف جمالي يصل إلى خيال كل قارئ، حيث يقول "وبعد ذلك أشرت إلى قسنطينة الوقحة، تأكدت من هضاب الحضنة، رأيت جبال الأوراس وفهمت لون البنفسج والنسور، رأيت مدينة الجزائر نائمة، حالمة، مستيقظة، حيث سماء الأمراء، ابتسم لي الأطفال، دخلت تيمقاد النائمة عبر باب تراجان " (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 146).

إن ذكر هذه الأماكن وبهذا الوصف له رمزية كبيرة تكسر قيود التقسيم الفرنسي، لأنه لا حدود بين أراضيها، ثم يكسر المسخ والتشويه لوجودها الحضاري والمتأمل في تاريخ مدينة الجزائر وقسنطينة وتيمقاد، يجعل لهذا الوطن وحدة ترابية كما هي الوحدة الوطنية، ونجد خطابه نوعا من الحنين وكأنه طير جارح يأتي من باريس ليلقي نظرة على بلاده ويعود "ولكنه فهم رغم ذلك أن الصحراء لم تكن إلا حلما " (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 67)

كما يعزز الكاتب انتماءه وهويته ويفتخر لكونه المسْتَعْمَر لا المستْعمِر، وينظر باحتقار إلى ذلك الانتماء المخزي، يقول: "مسكين السيد موريس ولقد أصبح من الشاق على نفس الإنسان أن يكون فرنسيا، أليس كذلك؟ " (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 30)

أما في رواية "التلميذ والدرس" نجد الكاتب يعيش صراعا بين إدراك الذات وتثبيت الهوية عبر كامل الخطاب، وفي كل رواياته ينطلق مالك حداد من مجازر 08 ماي 1945 التي تشكل المنعرج الذي غيّر رؤية شعبٍ بأكمله، والذي خرج يطالب

بالاستقلال وتذكير فرنسا بالتزاماتها ووعودها بمنح الشعب الجزائري استقلاله بعد انتصار الحلف، فكانت ردّة فعل فرنسا بمثابة الصفعة التي أيقظت روح الوطن النائمة، وكان توقيت هذه المجازر هو التاريخ الذي نُفى فيه بطل الرواية "صلاح إيدير" الذي أعطاه اسما يعبر به عن انتمائه للجزائر وللأصول الأمازيغية التي تثبت فعلية الوجود الجزائري، وفي هذا يقول "أُدعى ايدير صلاح، أنا هو الدكتور ايدير صلاح وأقطن مدينة فرنسا الصغيرة، المدينة الصغيرة الناعسة منذ 1945 " (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 15)

تحاور هذه الشخصية الحياة الجديدة بعد المنفى بالاندماج في المدينة الفرنسية التي تحمل حضارة جديدة غربية، كما يستعمل مالك حداد رمزية اللغة في كل رواياته، ويتجسد هذا في المقطع الآتي "يكلمني باللغة العربية مبدئيا أجيبه بالفرنسية، ولكي أتفادى اقتسام تضامني الأخوي الذي قد ينشأ من لغة مشتركة تبدر من إنسان احتقرته" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 97)

إن هذا الحوار بين "قايد دوار بن يوسفي" و"ايدير"، ونلاحظ في هذا الخطاب أن اللغة عنده ليست وسيلة تواصل فقط وإنما تشكّل تضامنا أخوياً، والاختلاف في الهدف يضع حدودا واضحة، إن اللغة لدى خِطاب مالك حداد تشكّل محورا أساسيا بكل كتابته، فكان وصفه للقايد وهو يبدي ولاءه لفرنسا وصفا قويا " قايد دوار بن يوسفي رجل ضخم وذكي، ورغم ذلك فهو أنيق جدّا، خسارة رغم ذلك فهو حثالة، كنت دائما أتحاشاه أنا لا أحبه، وهو يعلم ذلك العار كان ينسكب عليه مثل ذلك الورع كان يغلفه برنسه (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 96)

يصور لنا مشهد خيانة الوطن والتنصل من الهوية والمبالغة في الولاء والتنكر للأصل وخدمة العدو، ويخون الوطن بكل رضا وقناعة دون تخفٍّ أو حياء، بل يعتبر

خدمة فرنسا والسعي إلى تنفيذ كل الأوامر وطمس الهوية وإذلال الشعب والسيطرة عليه مفخرةً ورقيا مقابل امتيازات ذميمة.

4. **المقاومة والحرب:**

لقد أضفى الكاتب على المقاومة صفة الإنسانية، لم يخص بها صفة الجزائري فكانت المعاناة مرسومة بين الحروف وفي كل حدث، يقول في هذا: "إن خالد بن طوبال لا أبني حكمي على أفكار مسبقة، إنما أنا رجل صدق ومكانة بغيرة، لا أحكام بأفكار مسبقة على تلك الفترة التي كانت فرنسا تستطيع أن فيها أن تصير أخت أمي، أختنا، لأمي البكر، ولا هي أصغر منا، ولا هي أكثر غنى، ولا أشد فقرا، ولا هي أكثر حمقا ولا هي أكثر ذكاء (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 149)

يحمل هذا الخطاب العديد من الانطباعات والرؤى المبنية على ملاحظات ودقة، فهو يحدد فكرته الأساسية وهي السلام والعدل، "كانت فرنسا تستطيع فيها أن تصير أخت أمي" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 67) هذا الطرح العميق بالانتماء والتأصل والاعتراف بالوطنية، وأن الجزائر هي الأم التي ولدته، وكان بإمكان فرنسا أن تكون سلمية متآخية معها دون حرب، دون تصغير لوطنه، وإعطاء الحق في أن تكون الوصية عليه بعد عملية هدم البنى الاجتماعية، فتحكمه لجهله وفقره، بوضع مشاريع تعليمية وعسكرية لتقتل حضوره ولغته وأصله، وتثبت أصلا ولغة وهوية جديدة بحكم ظل مبنيا على أساس أن شعبها جاهل تغطيه غمامة الحمق وقلة العقل وفساد الرأي.

كما نجد الكاتب يبسط خطاب المعاناة من الحروب ليس في وطنه فقط وإنما ما عاشه الفرد الفرنسي جرّاء الحرب مع الألمان، ورغم ذلك أذاقت الويلات للشعب الجزائري ومفارقة أن كيف لشعب يتحدث عن ويلات الحرب والألم والمعاناة، ويقيم حربا على شعب آخر، ونجده هنا يقول: "في أثناء الحرب، لا حربكم أنتم وإنما الحرب الأخرى.

آه تبا لها، لقد وقعت حروب كثيرة حتى بات الإنسان يضيع فيه" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 56)

هذا الخطاب يعمد فيه الكاتب إلى أن يكون بلسان الآخر الفرنسي أي بلسان الشخصية "بيمبو" الذي عانى الويلات وأكل حماره جرّاء الجوع القاتل أثناء الحرب، مستعملا مرادفات للكلمات غير التي يعطيها التكوين والانتماء الوطني والثوري.

ليبين لنا الكاتب معاناة التغريب عن الوطن، المنفى الذي يقرأ الأخبار ويسمعها أكثر مما يعيشها، يقول: "كل يوم يمر أطول من سابقه، وكل يوم يكون أشد عبوسا، فلان قضى نحبه، وفلان عذب وفلان أو قف... وهكذا دواليك" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 50)

إنه الكاتب المنفيّ ينظر إلى تلك الأخبار المكتوبة أو المعلنة تلفزيونيا كأنها عودة إلى الوطن، لكنها مليئة بالألم والوجع، طويلة آلامها وكبيرة أوجاعها، فالفكرة هنا التي أراد إيضاحها الكاتب أن المنفيَّ يحس بالألم مثله مثل الذي يعيش في وطنه، ويعانيه وأكثر من ذلك، إن البعد عن الأرض يزيد من قوة الوجع.

إن مقاومة مالك حداد الذاتية في النص الروائي "سأهبك غزالة" تبدأ من بداية النص إلى نهايته، وظهرت المقاومة الذاتية أكثر من المقاومة الجماعية للوجود الفرنسي، لأنه يقاوم وجوده في بلد العدو الذي يحمل كل الاختلافات من ثقافة وفكر جديد، يقول: "إن شاعرا يواجه شاعرا، الجدار يواجه الجدار، وليس في المجاز بينهما حرام، إنها الموازنة الخالصة، إنه الطلاق، إن خصائص الخطين المتوازيين ألا يلتقيا البتة" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 30)

نرى أن هناك مقاومة للفكر الغربي أكثر من مقاومة الشعب للاستعمار، ولكن من جهة أخرى كان ينادي بالثورة ويدعم شعب، ما مجده في تعبير الكاتب أنه كان جسدا دون روح في منفاه كانت روحه موجودة في تلك البلاد "وهو معجب بالفرنسيين لأنهم يعرفون كيف يتكلمون، ولعلها اللغة الفرنسية" (حداد، سأهبك

غزالة، د ت، صفحة 34). شكلت اللغة لدى الكاتب عقدة التّشتت، فهو معجب بالفرنسيين لأنه يعرف لغتهم ويتقنها ويعجبه إتقانهم لهذه اللغة التي تعطيه شعور الخيانة للوطن فهو لا يتقن التعبير بلغة وطنه.

كما نجد الكاتب يوضح رؤيته مما يكتبه وما يعيشه شعبه "إن شعبنا المكافح لا يقيم لغزالته أي وزن" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 90)، إن الكاتب يريد القول إن كتابته تحاكي معاناة شعبه، إن غزالته التي كان يكتب عنها هي رمز للحرية وللرؤية استشرافية: "أيها الشعب إني جئتك بالبذر الطيب... وها أنا أهبك الغزالة المجلوبة من اليأس" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 67)

تمثل الغزالة عند مالك حداد رمز المقاومة والحرية، فهو لا يُقَوَّمُ بثمن ولا يعرض للبيع

يعيد الكاتب دائما تحديد مذاهب الشخصية بومضات تلميحية، إن شخصية "كاباشا" هي صورة الأشخاص الذين باعوا بلادهم وكانوا تابعين للاستعمار يعيشون بالذل، من الجماعة الذين يسمونهم في المجتمع الجزائري أثناء الحرب "القُومية"، يقول في هذا: "كاباشا رجل من العرب يتمتع بثقة الكوم ندان وبصداقة الليوطنا ماسون، وكان يعرف كيف يذكرك بذلك عند الاقتضاء " (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 49)

يصور لنا كيف يتعامل مع عملاء فرنسا من الجزائريين عبر انزياح لغوي خطابي يجسد لنا كيف يبيعون الوطن والحرية، ويبيعون أبناء وطنهم بالثمن البخس.

5. الحرية:

إن حوار مالك حداد في رواية "التلميذ والدرس "هو حوار يعبر عن السلام والحصول على الحرية الذاتية لا يكون إلا بتحرر الفكر والذاكرة الجماعية لما عاشته من مآسٍ يمكن أن تحقق الحرية كظاهرة حقيقية وتطبق سياسيا، لكن الفرد يبقى

مربوطا بذاكرته التي يتسلل إليها نور السلام لما عاشته من معاناة وألم في فترة الاستعمار "يمكن أن يعود السلام، ولكن لا يعود سريعا إلى نفوس البشر، ليس للقلب ذاكرة، ولكنه ينزف دما، إن البغضاء تدوم زمنا أم الحقد فخال"

إن اللغة في هذا الخطاب قوية وموحية تدلل على أن الجزائري مهما عاش حريته واستقل ومر الزمن لن ينسى المأساة، ستبقى خالدة في تاريخه، وهذا نتيجة للمجازر التي عاشها شعبنا، كما يكشف إيدير في خطاب المقاوِمة فضيلة والطّالب الجزائري عمار اللّذان جسّدا صورة المقاومة الاستعمارية في الخارج، ويصارعان الغرب بأنواعه، وينتميان إلى المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي.

6. الرؤى الدينية:

نجد أن الخطاب الديني الذي طرحه مالك حداد في هذا النص الروائي ينقلنا من حدث إلى حدث، نجد البطل خالد بن طوبال يخاطب نفسه في عتاب يقول " لست متأكدا من أنني أومن بالله، إنني ألوم نفسي على رجوعي إليه بدافع الحزن أكثر منه بدافع الحب، لقد أحببت الدعاء لأحزاني ". (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 94)

إن الخطاب يبدأ بالتشكيك في قوة الإيمان التي تبنى على القول والفعل، وهذا ليس قطعا بالقول الذي يختلف عن الفعل، وهذا ما أراد الكاتب إيصاله: أن الإيمان ليس مجرد قول دون فعل، والإنسان بطبعه يتغير من حال إلى حال، يقول تعالى: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝" (سورة المعارج، الآيات 19-21)

إن الإنسان لا يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى إلّا إذا اشتدت عليه وهلع وفجع وكربه وأنزل عليه الحزن، فيتوجه إلى التضرع لله ودعائه حبا لنفسه، أما إذا كان في رخاء وسعادة فلا حمد ولا شكر ولا ذكر، إن الإيمان في رؤية الكاتب هو حب الله أكثر من حب النفس، وذكر الله في الرخاء قبل الشدة.

نجد الكاتب في خطاب آخر ينقد فيه ظاهرة التطير في المجتمع، وأيضا الرؤية المختلفة أو الأسلوب المختلف في التعامل مع فعل التطير والرؤية المختلفة له، تقول مونيك في حوارها مع خالد بن طوبال وسيمون: "لست أعرف بأنك تتطير إلى هذا الحد يا سيد بن طوبال هذا يدهشني من رجل يعتقد بالله، "يرد خالد على مونيك قائلا: أنت نفسك في عملك، لديك القانون والحقوق من جهة أخرى، أليس كذلك؟ والتطير بالنسبة إلى هو فقه المعتقد لا أرى فيه ما يناقض اعتقادي" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، الصفحات 104-105). نجد أن الخطاب الديني ليس موجها للأنا المسلم فقط بل موجه أيضا للآخر، يقول خالد بن طوبال في وصفه للسيدة ليوني على أنها قدّيسة يقول: "هذه القديسة التي تحب الاطلاع قليلا بتودد ولطف، ذلك أنه لابد من أن يكون على الأرض، نقيضة صغيرة لجميع القديسين" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 84)

أي أن الإنسان بصفة خاصة غير مكتمل مهما جاهد نفسه، لأن النقائص موجودة فيه لطبيعة وجوده، فهو خُلِقَ لكي يخطئ ويصحح.

لقد حاول مالك حداد منذ بداية الرواية "سأهبك غزالة" إظهار السياق الديني لديه، فهو ينتمي إلى المجتمع الجزائري الذي يؤمن بوجود الله وبدين الإسلام، فأول ما بدأت الرواية "ما أعظم الله فهو عظيم بقدر ما أنا وحيد" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 03)، في هذا الوصف يأسس الجانب العقائدي والديني عنده على القناعة الشخصية، وعلى اليقين بوجود عظمة الله ويربط عقيدته بفلسفته في الحياة، وكأنك تقرأ نفحات صوفية "إن الله عظيم، وكذلك الصحراء" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 82)، يربط الكاتب دينه بوطنه فالصحراء هي انتماؤه، إن وطنه له قيمة مقدسة لديه وتأتي بعد قداسة الله سبحانه وتعالى.

كما يتأسس هذا الجانب عند مالك حداد في بعض المواقف الخطابية بالدلالات التي يعطينا بها رؤيته الدينية إلى اليقين بالمعجزات التي تحدث عند مناجاة

الخالق سبحانه في لحظات اليأس والوحدة، فهو يدبر أمر عباده، يقول: " من يدري؟ لو فكر في الله طالبين منه الماء، من يدري لعل الله يسعفهما به، أليس الله بقادر على الإتيان بالمعجزات، وأليس الله على كل شيء قدير، ولكن المشحم ومولاي كانا مشغولين عن التفكير في الله، فقد كانا عطشانين ولم تخامرهما فكرة الابتهال إلى الله" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 83)

يؤكد الكاتب على قيمة الدعاء والتوجه إلى خالق في الابتلاء، وضياع مولاي وصاحبه في الصحراء هو امتحان لهما، إن العبد إذا توجه إلى الله في العسر لآتاه اليسر، لكنهما من شدة العطش ونفاذ الماء في قلب الصحراء فكرا في الانتحار، "بل فكرتهما الوحيدة أن يشربا، أن فكرة الابتهال لا تخامر إلا الذين يموتون بأفرشتهم، والذين يعرفون كيف يموتون هم الذين لا يعوزهم شيء في الحياة، إذ يصبح الموت إذ ذاك في متناول أيّ كان، وعلى من يبتغي أن يكون مجنونا" (حداد، سأهبك غزالة، د ت، صفحة 83)

يريد الكاتب أن يدلل على قيمة الدعاء، والثابت باليقين والاستجابة، وكل ما يقدره الله هو خير، إن الدعاء لله لا يكون بوقت إدراك الموت، إن الابتهال والدعاء لا يكون للشخص الذي يدرك نهايته أو على فراش الموت، فهذا الأخير موجود في كل ساعة ووقت، لكن اللجوء لله، يكون دائما وفي كل المواقف، مولاي وصديقه لو أدرك معجزات خالقهما لما لجآ إلى الانتحار.

أما في رواية "التلميذ والدرس" يحاكي الكاتب الواقع بسمات دينية واضحة يخاطب الواقع الديني مصورًا لنا فيها القدرة الإلهية في كل شيء، وأن الإنسان مهما اجتهد في علمه وتطوره ووصل إلى أشياء إعجازية، لن يستطيع الوصول إلى قدرة الله عزو جل، يقول: " ولن يصل لدرجة المعجزة أن يكون بيد الله عز وجل" (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 72)، كما يتوجه الكاتب إلى الاستدلال بالعادات التي هي من المستعملات الجديدة في الجيل الحالي "معجون الأسنان وليس سواكا"

(حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 79)، إن ثقافة السواك من سنن نبينا محمد عليه أفضل الصلوات، وهو من تقاليد الثقافة العربية وتتبعها في كل شاردة وواردة، وإن الخروج الكلي عن كل سنن نبينا وعاداتنا لمجرد التقليد الأعمى للغربي الأخر الذي يمثل التطور. هو تخلٍّ عن الهوية.

كما نجد عبر شخصية فضيلة العديد من الرسائل الرمزية على جميع الأصعدة سواء كان إيجابًا أو سلبًا، أنه ينقذ الجيل الصاعد الذي انسلخ من دينه وعاداته وتقاليده، وأصبح مقلدا أعمى لكل شاردة أو واردة، لدرجة الخروج عن الدين قبل العادة والمجتمع، يقول في مونولوج "لإيدير": "عند عودتي كانت فضيلة تدخّن، لا أحبذ أن المرأة تدخن وبخاصة إذا كانت جزائرية " (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 19)

إن دراسة النص توضح لنا من خلال شخصية فضيلة ابنة إيدير كانت جزائرية غلبت عليها الثقافة الغربية، ولأن التدخين في الأصل عادة للرجال محضورة على المرأة في المجتمع الجزائري وهي عادة سيئة بالنسبة لهم، فما بالك بالنساء، وهو محرم في ديننا الإسلامي.

يرى الكاتب في رواية "ليس لرصيف الأزهار من يجيب" أن الارتباط الزوجي يجعل الإنسان يفقد أهم علاقاته الإنسانية وهي الصداقة، لأن الأولويات تتغير، والإطار الذي يدخل فيه الإنسان، أي الرباط الزوجي يجعله يخضع لشروط والتزامات تخرجه دون وعي من علاقاته السامية، " وهكذا عندما يتزوج الإنسان لا يبقى له أصدقاء، وإنما تبقى له صلاة يستخدمها في حاجة يوم الأحد" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 93)

كما ركز مالك حداد في هذه الرواية العلاقة التي تجمعه مع سيمون وهي علاقة صداقة، الذي سافر من أجله إلى باريس، فهو صديق الشباب والدراسة وتشاركا تجارب عديدة، يقول الكاتب: "فأنا أجيء لأراك وأؤكد قولي، آتي إلى رصيف

الأزهار لأراك مرة أو مرتين في الأسبوع، وأجيء لأرى ليسي قسنطينة" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 64)، الخطاب الموجه لسيمون مختلف لأنه ربط حبه لصديقه ورؤيته له بحبه لقسنطينة والحنين إليها، ووجوده مع سيمون في باريس ناتج عن الغربة والحنين، ويحسه بأنه في وطنه وأرضه.

أما بالنسبة لعلاقته بأسرته وزوجته "وريدة " فهي علاقة مختلفة كليا؛ إن وريدة بالنسبة لخالد بن طوبال هي الحياة، وفي هذا يقول: "وريدة تمسك عن الكتابة إلى أنها تحرمني خبزي اليومي" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 51)، أنه يفتقد للحياة بانقطاع زوجته وحبيبته عنه، فهي غذاؤه ومعاشه، ويقول أيضا: "فهو لم يشك أبدا في الحب، وهذا الحب الذي يهبه، وفي هذا الحب الذي يلقنه (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 51)"

يؤكد خالد بن طوبال أنه يحب ويعلم الحب ويلقنه، وحيث ما حل حلت المشاعر الطيبة والصادقة، وفي الحب يقول: "أن المحب لا يعثر به الخجل، فالحب لا يخجل" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 65)

يوضح الكاتب عبر رواية "سأهبك غزالة" دور الروابط الاجتماعية وبجميع أنواعه، ويصور لنا عبر الشخصيات كل أنواع الحب والعلاقات الإنسانية التي يمكنها أن تربطها مشاعر المحبة والود لا العكس؛ "فإن لم يكن لديك ما تحب فاطرح قلمك " (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 03)، وفيما بعد بدأ بتصوير فعل الحب: "إن فعل أحب في اللغة العربية تحجر الفكرة عنه"، ثم جمع بين نصين يكادان يكونان مختلفين ومتطابقين في الوقت نفسه في خطابه كاتب يعيش في منفى عن بلاده في باريس، وقصة حب في صحراء الجزائر تمنعها أياد يطالها الاستعمار من أن تتم وتستمر، لكن استمرارها كان في أن تعيش تلك الغزالة حياة تتمتع بحريتها، كان حب الوطن مصورا في تلك القصة التي جمعت بين "يمينة ومولاي" بطلا القصة"، حيث كان يلتقيان في مكان يعبّر عن الحياة والموت.

إن الصحراء بالنسبة للكاتب هي رمز للجزائر وللعروبة، وهي المكان الأنسب للحب والشاعرية؛ "إني عندي قبل أن ألتقي بيمنية كان طبعا عهد جاهليتي، يمينة إنها الدفء، إنها الرغيف

إنها باقة من المغامرات" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 71)

يقول أيضا في السياق نفسه على لسان مولاي: " أن يمينة كانت نائمة كالكويرة الصغيرة، كرغيف الحب"، تجسد شخصية يمينة رمز الجزائر في تصوير الدفء والأمان، إنها انعكاس للوطن، أما الرغيف والمغامرة والحب، إنها صحراء الجزائر الوطن، فهي صورة من صور الجزائر: "إن المرأة لأعظم من الحب، وإن الحياة لأعظم من المرأة بكثير، ولا يكون الإنسان حيا إلا إذا عشق, ذلك أن يمينتا كانت هناك" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 33) وهذه رؤية فلسفية للحياة والحب معًا، فلا حياة دون حب ولا حب دون حياة، ثم ينقلنا إلى ميزة الوفاء لحب مولاي بعد أن طلبها باكاشا للزواج"، لقد بكت على حبّها، أضفت عليها دموعها ضربا من الرشد المباعث والنضج" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 45) يمينا كانت تبلغ من العمر سبعة عشر، لكنها لم تفكر بطيش أو طمع، بل فكرت بحب ووفاء، ولم يغرِها لا مال ولا جاه باكاشا ومكانته لدى الكومنديان، على العكس زاد شغفها لحب مولاي فهو كبير بقدر أنه لا يذكر.

وحاول الكاتب أن يبين لنا معنى الحب الدائم عنده والمستمر الذي لا ينقطع، وهو حب الله في حواره مع جيزال يقول: " إن الله، لو درتي يا جيزال، هو الحل الوحيد".

أما عن الأحاسيس الأخرى في هذا النص كالكره والغضب والعصبية فقد ظهرت في عدة تمثيلات، فكتمان الغضب مثلا بالنسبة له أشبه بمواجهة الصحراء بما فيها من قسوة وقوة وهيبة "الصحراء، أني أعرفها لقد فتشت في جميع الزوايا،

لقد عرفت الشتم والبغضاء، بل نظرت إلى الصحراء وأحببت بواسطة الصحرا" (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 33)

وأما التصريح بالحب عند الكاتب في هذا النص ليس بالعمل السهل ولا اليسير، على المحب أن يعبر عما يختلجه، فهو يحتاج إلى موهبة خاصة للتعامل معه، والصمت هو أنبل لغة، وهو الأكثر جمالا للتعبير وإيصال المشاعر بصدق.

نجد الكاتب عبر الشخصيات رواية التلميذ والدرس يحاول دائما أن يسمو بقيمة هذا الكائن مهما كانت أفعاله نجده في رواية التلميذ والدرس يبدأ بابنه ثم حبيبه ثم زوجته وفيها يقول: " كانت سعدية لطيفة جدا، وتتألم كثيرا، وكنت أتألم برفقتها بعد زمن انقطعت عن الكلام كليا في البيت، وأما زوجتي فكانت تقتصر مقام الولي سيدي راشد في مدينة قسنطينة للتضرع والصلاة لكي يخلصني من مس الشيطان، لم يمسسني أي شيطان بحق، كنت أحنو على سعدية كثيرا، فلا أحد يتخذ أخته زوجا" (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 43) يتحدث "ايدير" عن زوجته سعدية التي ارتبط بها بأمر من والده الذي كان يعمد من أجل دراسته ماديا ومعنويا، لذلك لم يكن يستطيع رفض أي أمر منه رغم أنه لا يحب سعدية ذلك الحب الذي كانت تتمناه، إلا أنه كان يحبها كأخت له وكان يحس بمشاعرها وبقدر ذلك الحب الذي كانت تكنه، له كما نجد الكاتب يعبر عن عشقه للجزائر عبر شخصية "ايدير" الذي يصف ابنته فضيلة في حب وحنان، يقول لجرمين: " أليست جميلة، دميتي؟

-إنها جد جميلة، أحببت اعتقدت بأن صوتها قد انسلخ من أحشائها، ثم أمدت

- نعم إنها جد جميلة (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 54)"

كان وصف ايدير لـ "جرمين" وكأنه يقول لها أليست الجزائر جميلة يحاول أن يرمز لجمال الجزائر بجمال فضيلة وبهاء الطفولة وبراءتها، ورد "جرمين" – كأنه رد

فرنسا التي تخشى أن تفقد سلطتها على الجزائر بفقدها لـ "ايدير"، وهو ما يمثل الشعب الجزائري رغم كل الأساليب من ترغيب ومسخ وتشويه، إلا أنها تستطيع التأثير على الهوية الجزائرية داخل كل فرد، وشخّص الوطنية عند الشعب الجزائري بالفطرة موعد انزياح غشاء فرنسا الذي وضعته على بلادنا بدأ ينزاح باندلاع الثورة التحريرية، سوف تثبت الجزائر هوية شعبها، ومنبتهم كان رمزا قويا جمع فيه الكاتب بين جمال فضيلة والجزائر وبين جرمين التي تخاف خسارة "ايدير " وبين مخاوف فرنسا من الثورة التحريرية، وما ستضعه بوجودهما في الجزائر، أما في وصفه لابنته فضيلة في قضية إجهاضها لطفلها وهو رمز الثورة والأمل في الاستقلال يقول: "رأيت حلما عجيبا تعاطفت من خلاله مع قضية فضيلة، لأتقن الكتابة، من هنا نشأت أحاسيسي، غير أن الشقاء يخلق الشعر". (حداد، التلميذ والدرس، 2008، صفحة 48)

ثم يوجه الكاتب الخطاب إلى الآخر الفرنسي الذي اضطرته الحياة إلى التخلي عن إنسانيته عند خطاب شخصية بيمو لخالد بن طوبال: "هذا صحيح يا سيدي، أنا مجرم، ذلك أنه عندما جاءت ألمانيا، لم يكن هناك ما يؤكل، لذلك أكلت حماري:

نعم يا سيدي إنني أكلت، رفيقي (حداد، ليس لرصيف الأزهار من يجيب، 2009، صفحة 71)..."

لقد اضطرت الحرب "بيمو" للتخلي عن إنسانيته وأكل صديقه وهو يبكي، إنها هي قمة الوجع، هذا الخطاب الذي أراد به الكاتب أن يكشف صورة المستعمر في حربه لم يرحم حتى أبناءه، فقد عاشوا الجوع والقحط والانحطاط الإنساني، وجعلت من الصديق يتخلى عن صديقه وشريكه، صحيح؛ لكن العلاقة بين بيمبو وحماره كانت كبيرة ونقية.

وفي ختام بحثنا نخلص إلى أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها من خلال رصدنا للرّؤي الأيديولوجية والدينية والاجتماعية في نماذج من روايات مالك حداد "ليس لرصيف الأزهار من يجيب، التلميذ والدرس، سأهبك غزالة".

إنّ العلاقة الإيديولوجية والاجتماعية والدينية مع الرّواية متينة، والرّواية الجزائرية سواء المكتوبة باللغة الفرنسية أو اللغة العربية لا تخلو من الومضات والإشارات المرتبطة بأفكار الكاتب وتوجّهاته المضمرة داخل البنية السّرديّة للخطاب الرّوائيّ، وقد تمكّن الرّوائي الجزائري من التّعبير عن القضايا الوطنيّة والثورية عبر مرحلة تاريخية تعقب مجازر 8ماي 1945 المختلفة، فكان لسان أمته وابن وطنه وزمانه، وقد نجح في التّعبير عن الرؤى، فواجه المستعمر وعبّر عن رفضه لأعماله الوحشية من خلال الشخوص والأحداث، فكان موضوع الثّورة والهوية من أحد المواضيع التي لازمت الرّواية الجزائرية لمدة زمنية طويلة، وقد رافقتها عدّة نزعات منها الاندماجية والنضالية...

7. **خاتمة:**

إن الرّوايات التي اخترناها كأنموذج لهذا الموضوع تناولت عدة توجهات حول الانتماء والثورة والمقاومة التي حملت رؤى الكاتب الذي رفض أيديولوجيات المسخ وتشويه التاريخ ومقاومة الاستعمار الفرنسي وتمسك بالهوية والأرض.

وتحمل الروايات رؤية استشرافية للقضية الجزائرية انطلاقًا من أحداث 8ماي 1945التي غيّرت مجرى تاريخ الجزائر.

وباعتبار الرّواية عملا قابلا للتكيف مع المجتمعات الإنسانية، فإننا نرى أن الرّوائي مالك حداد تمكّن في رواياته من رصد مختلف الظواهر الاجتماعية والسياسية التي عاشها المجتمع الجزائري، والتي كانت سببا، فاتخذ الكاتب الرّواية كوسيلة للتّعبير عن رفضه للمنفى المكاني واللّغوي، وقد شكلت اللغة الفرنسية

منعرجا في حياة الكاتب الروائية، فاللغة الفرنسية شكلت له عقدة بين ما يكتبه بلغة المستعمر وما يشعر به من غربة في داخله لأنه لا يتكلم بلغته ولا يعبّر بها.

8. قائمة المصادروالمراجع:

1. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور. (2003). لسان العرب، مج 4، مادة(رأى). القاهرة: دار الحديث.

2. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج1. لبنان: دار الكتاب اللبنانية.

3. سعيد يقطين. (1997). تحليل الخطاب الروائي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

4. عبد الله خلف العساف. (2005). دراسة جمالية نصيه في شعر السعودي الجديد (ممارسة في النقد التطبيقي). جامعة الملك فهد للبترول والمعادن.

5. مالك حداد. (2008). التلميذ والدرس. (ترجمة: سامي الجندي الدكتور سامي الجندي) منشورات وزارة الثقافة.

6. مالك حداد. (2009). ليس لرصيف الأزهار من يجيب. أفاق الكتابة.

7. مالك حداد. (د ت). سأهبك غزالة. (ترجمة: صالح القرمادي) تونس: الدار التونسية للنشر.